أحوال السلف في الحج

تأليف

د. بدر بن ناصر البدر

عضو هيئة التدريس بكلية أصول الدين بالرياض

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفضيلة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد الأمين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن من شعائر الإسلام الحج إلى بيت الله الحرام، وقد حج النبي صلى الله عليه وسلم مرة واحدة، وحج معه أصحابه رضي الله عنهم الذين نقلوا لنا هديه وسنته في ذلك، وكان لهم معه عليه الصلاة والسلام وبعده مواقف محمودة وأحوال مرضية في اتباع السنة والعناية بها وتعليم الناس إياها، مع استغلال تلك الأزمان الشريفة والمناسك العظيمة بما هي جديرة به من الأعمال الصالحة والقربات المتنوعة وغير ذلك.

وقد جمعت من تلك المواقف والأحوال مع دراستها والإفادة مما ذكره أهل العلم والتعليق عليها، وإبراز الفوائد المستنبطة منها والدروس النيرة التي جاءت فيها، مع بيان بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بذلك، ما جاء في هذا البحث الذي جعلت عنوانه « **أحوال السلف في الحج** »، وقد سرت في كتابته حسب المخطط التالي:

- **المقدمة:**
- **المبحث الأول: فرضية الحج والترغيب فيه وبيان حكمه وأسراره.**
- **المبحث الثاني: قدسية البيت الحرام ومكانته.**

- المبحث الثالث: حث السلف على أداء الحج مع العناية بتصحيح النية وطيب النفقة .

- المبحث الرابع: أقوالهم في بيان الحج المبرور وتطبيقهم ذلك .

- المبحث الخامس: فضل يوم عرفة وأحوالهم فيه .

- المبحث السادس: فضل يوم العيد وأيام التشريق وأقوالهم فيها .

- المبحث السابع: عنايتهم بمعرفة السنة وتأدبهم في تعلمها.

- المبحث الثامن: حرصهم على اتباع السنة وتطبيقها وتحذيرهم من الخلاف.

- المبحث التاسع: الاهتمام بالسنة وثمار اتباعها .

- المبحث العاشر: المداومة على العمل الصالح بعد الحج .

- الخاتمة .

وقد قمت في هذا البحث بعزو الآيات وتخريج الأحاديث والآثار، وتوثيق النقول وإحالتها إلى مصادرها الأصلية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ولا أدعي بهذا العمل الإحاطة بتلك المواقف والدروس المستنبطة منها، فما ذكرته أمثلة موجزة، وفي بطون كتب السنة والسير والتراجم الشيء الكثير .

أسأل الله عز وجل أن ينفع به، وأن يغفر لي خطئي وزللي وتقصيري إنه غفور رحيم .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المبحث الأول

فرضية الحج والترغيب فيه وبيان حكمه وأسراره

الحج أحدُ أركانِ الإسلام، ومبانيه العظام، فرضه الله على عباده في العمر مرةً واحدة، وما ازداد به العبدُ بعد ذلك فهو تطوع، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١]، قال الحافظ ابن كثير- رحمه الله - « هذه آيةُ وجوبِ الحج عند الجمهور، وقيل: بل هي قوله: ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾، والأول أظهر، وقد وردت الأحاديثُ المتعددةُ بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمِه وقواعدِه، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع »[٢].

وقد تضمن قولُه سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾ من الحكم والأسرارِ ما يحث النفوسَ المؤمنةَ على أداء فريضة الحج، ويقوي العزائمَ وينهض الهممَ للقيام بهذا النسك العظيم، إيماناً بالله ورضاً بفرضيته واستسلاماً لأمر الله وحُكْمِه، واقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم القائل « لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[٣]، وفي بيان أسرار هذه الآية ونكاتِها ولطائِفها يقول ابنُ

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٨٣ .

(٣) جزء من حديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه -كتاب الحج- باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً ٩/ ٤٤ .

القيم: «ومن فوائد هذه الآية وأسرارِها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمُه، يَذْكُرُه بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر، أو بلفظ الإيجاب والكتابةِ والتحريم، نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾، ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وفي الحج أتي بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه: أنه قدم اسمه تعالى، وقدم عليه لام الاستحقاق والاختصاص، ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العمومِ الداخلة عليهاِ حرفُ « على »، ثم أبدل منه أهلَ الاستطاعة، ثم نكَّر السبيل في سياق الشرط، إيذاناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت من قوتٍ أو مال، فعلَّق الوجوبَ بحصول ما يسمى سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر، فقال «ومن كفر» أي: بعد التزام هذا الواجب وتركه، ثم عظم الشأنَ وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد.. ثم أكد ذلك بذكر اسم العالَمين عموماً، ولم يقل: فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلِهم، فله الغنى الكاملُ التام من كل وجه.. وكان أدلَ على عِظَمِ مقته لتاركِ حقِه الذي أوجبه عليه، ثم أكد هذا المعنى بأداة « إن » الدالةِ على التوكيد»[1].

وقد جاءت الأحاديث النبوية آمرةً بالحج حاثة عليه مرغبة فيه، ومحذرةً من أعرض عنه وتكاسل في أدائه، متى استَجْمعت فيه شروطُ الحج، فإنه حينئذٍ واجب على الفور، ففي الأمر بالحج وبيانِ أنه أحدُ أركان الإسلام ما رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد ٢/ ٤٥ .

قال: « **بني الإسلام على خمس، شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصومِ رمضان، وحجِ البيت من استطاع إليه سبيلاً**» رواه البخاري ومسلم [١]، وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « **أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا** »، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **لو قلتُ نعم لوجبت، ولما استطعتم** »، ثم قال: « **ذروني ما تركتكم، فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالِهم واختلافِهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه** »[٢].

ومما ورد في الترغيب في الحج ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة** »[٣]، ورويا أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[٤]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه مع الفتح -كتاب الإيمان- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «بني الإسلام على خمس» ١/ ٤٩ رقم (٨)، ورواه مسلم في صحيحه بشرح النووي-كتاب الإيمان-باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام ١/ ١٧٦

(٢) رواه مسلم في صحيحه -كتاب الحج- باب فرض الحج مرة في العمر ٩/ ١٠١، ١٠٠ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه -كتاب العمرة- باب وجوب العمرة وفضلها ٣/ ٥٩٧ برقم ١٧٧٣، ورواه مسلم في صحيحه -كتاب العمرة- باب فضل الحج والعمرة ٩/ ١١٧ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه -كتاب الحج- باب فضل الحج المبرور ٣/ ٣٨٢ برقم ١٥٢١ واللفظ له، ورواه مسلم في صحيحه -كتاب الحج- باب فضل الحج والعمرة ٩/ ١١٩ .

وسلم: « **ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفه، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء**» رواه مسلم[1]، وغيرُ ذلك من الأحاديث في فضلِ الحج والترغيبِ فيه .

قال ابن القيم -رحمه الله -: «ثم تأمل كيف افتتح هذا الايجاب -أي إيجاب الحج- بذكر محاسنِ البيت، وعظَّم شأنه بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه، وإن لم يُطْلَبْ ذلك منها، فقال: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ، فوصفه بخمس صفات، **أحدُها**: أنه أسبق بيوتِ العالم وضع في الأرض، **الثاني**: أنه مبارك، والبركةُ كثرةُ الخيرِ ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثرَ خيراً ولا أدومَ ولا أنفعَ للخلائق، **الثالث**: أنه هدى.. **الرابع**: ما تضمنه من الآيات البينات... **الخامس**: الأمنُ لداخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجابِ قصده، ما يبعث النفوسَ على حجه، وإن شطت بالزائرين الديارُ، وتنائت بهم الأقطار .

وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم والتنويه بذكره، والتعظيمِ لشأنه والرفعةِ من قدره، ولو لم يكن له شرفٌ إلا إضافتَه إياه إلى نفسه بقولـه: ﴿ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ لكفى بهذه الإضافةِ فضلاً وشرفاً، وهذه الإضافةُ هي التي أقبلت بقلوب العالَمين إليه، وسَلَبَتْ نفوسَهم حباً له وشوقاً إلى رؤيته، فهو المثابةُ للمحبين، يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطراً أبداً، كلما

---

(١) رواه مسلم في صحيحه -كتاب الحج- باب فضل يوم عرفة ٩/ ١١٧ .

ازدادوا له زيارةً ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً »[١]. ا.هـ مختصراً .

لقد جاء في الكتاب والسنة الأمر بالحج والترغيب في أدائه ومتابعة هذا العمل الصالح، وأبانت الأدلة آثارَه على أهله في الدنيا والآخرة، إبانةً تدفع النفوسَ المؤمنةَ إلى المسارعةِ والمبادرةِ في طلب ذلك الفضل، بل ويهوِّن أنواعَ المتاعب والمشاق، وأنواعَ الإعطاء والإنفاق، قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾[٢] الآيات، وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمانٌ بالله ورسوله**، قيل: ثم ماذا؟ قال: **جهادٌ في سبيل الله**، قيل: ثم ماذا؟ قال: **حج مبرور** »[٣]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:« شدوا الرحال في الحج، فإنه أحدُ الجهادين » رواه البخاري[٤].

ثم إن في شريعة الإسلام وأحكامِها الغراء المصالحَ الشريفة والحكمَ العظيمة، وقد يظهر لأهل العلم شيء من ذلك، وذكْرِهُم لهذه الحكم من هذه العبادات إنما هو حثٌ على أدائها طاعةً لله عز وجل بفعلها، والتزود منها، وهناك من الحكم والأسرار في شرعيتها الشيءُ الكثير الذي لا نعلمه،

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد ٢/ ٤٥ .

(٢) سورة الحج، الآيتان ٢٧-٢٨ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه -كتاب الحج- باب فضل الحج المبرور ٣/ ٣٨١ برقم ١٥١٩، ومسلم في صحيحه -كتاب الإيمان- باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ٢/ ٧٢

(٤) رواه البخاري في صحيحه -كتاب الحج- باب الحج على الرحل ٣/ ٣٨٠ تعليقاً.

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[١].

ومن العبادات التي تكلم أهلُ العلم في حكمة مشروعيتها وبيانِ أسرار فرضيتها الحجُ وشعائرهُ، قال ابن القيم رحمه الله: « وأما الحجُ فشأن آخر، لا يدركه إلا الحنفاءُ الذين ضربوا في المحبة بسهم، وشأنُه أجلُ من أن تحيط به العبارة، وهو خاصةُ هذا الدين الحنيف ومعونة الصلاة وسر قول العبد: لا إله إلا الله ، فإنه مؤسس على التوحيد المحض والمحبة الخالصة، وهو استزارة المحبوب لأحبابه ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم: لبيك اللهم لبيك، إجابة محب لدعوة حبيبه، ولهذا كان للتلبية موقع عند الله، وكلما أكثر العبد منها كان أحب إلى ربه وأحظى، فهو لا يملك نفسه أن يقول: لبيك اللهم لبيك حتى ينقطع نفسه، وسائرُ شعائر الحج مما شهدت بحسنه العقولُ السليمة والفطرُ المستقيمة، وعلمت بأن الذي شَرَعَ هذه لا حكمة فوق حكمته »[٢] ا.هـ مختصراً .

وممن تحدث في بيان حكم الحج وأسراره ابن قُدامة، فمما ذكره :أن يتذكرَ بتحصيل الزاد زادَ الآخرة من الأعمال، وليحذر أن تكون أعمالهُ فاسدة من الرياء والسمعة، فلا تصحبُه ولا تنفعه، كالطعام الرطب الذي يفسد في أولِ منازلِ السفر، فيبقى صاحبُه وقت الحاجة متحيراً.

وإذا فارق وطنَه ودخل الباديةَ وشهد تلك العقبات والصعابِ والشدائد، فليتذكر بذلك خروجه من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة، وما

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٥ .

(٢) مفتاح دارالسعادة ٢/ ٤

بينهما من الأهوال .

ومن ذلك أن يتذكر وقتَ إحرامه وتجرده من ثيابه أنه يلبس كفنه، وأنه سيلقى ربه بزي مخالفٍ لزي أهل الدنيا، وأنه يأتي ربه متجرداً من الدنيا ورفعتِها وغرورها، ما معه إلا عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وإذا لبى فليستحضر بتلبيته إجابة الله تعالى إذ قال: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ وليرجِ القبولَ وليخش عدمَ الإجابة، وليتذكر خيرَ من لبى وأجاب النداء، محمداً صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، وليعزم على الاقتداء به واقتفاء سنته واتباعِ طريقه .

وإذا وصل إلى الحرم فينبغي أن يرجو الأمن من العقوبة، وأن يخشى أن لا يكون من أهل القرب عند الله، معظماً رجاءه في ربه محسناً ظنه به، فإذا رأى البيت الحرام استحضر عظمةَ الله في قلبه وعَظُمَت خشيتُه له، وازداد له هيبة وإجلالاً، وشكَر الله تعالى على تبليغه رتبةَ الوافدين إليه، وليستشعر عظمةَ الطوافِ به فإنه صلاة .

وأما الوقوفُ بعرفة والمبيتُ بمزدلفة ثم في منى فيتذكر بما يرى من ازدحامِ الخلق وارتفاعِ أصواتهم واختلافِ لغاتهم موقف القيامة، واجتماع الأولين والآخرين في ذلك الموطن وما فيه من أهوال وشدائد ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ [1].

وإذا جاء رميُ الجمار فاقصدْ بذلك الانقيادَ للأمر، واظهارَ الرق

---

(١) سورة القيامة، الآيات ١٠ - ١٣ .

والعبودية والحاجةِ والفاقة، وامتثالَ السنة واتباعَ الطريقة، وتقديمَها على حظوظ النفس ورغباتِها[١] ا.هـ

لقد جمع الحجُ بمناسكه عبادتين عظيمتين، ماديةٍ بالبذل والنفقة، وبدنيةٍ بالقيام بشعائره وأداءِ مناسكه، كما حج عليه الصلاة والسلام القائل: «**لتأخذوا مناسككم**»، ولذلك كان الصالحون من عباد الله يتحسرون على فوات الحج وعدم تمكنِهم منه، على أن المتخلفَ لعذر شريكُ السائر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك: «**إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر**»[٢]. يحدوهم قول الشاعر:

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على عذر وقد رحلوا ... ومن أقام على عذر كمن راحا

ولهؤلاء وغيرهم يقال ليست العبرةُ بكثرةِ العمل، إنما العبرةُ بقبوله مع إخلاص النية وسلامة القلب وطهارتِه من كل ما يشوبه، وقوةِ التعلق بالله، خشيةً منه ومحبة وإجلالاً وتعظيماً له، ورغبةً فيما عنده وزهداً في الدنيا وما عند الناس.

قال ابن مسعود رضي الله عنه لأصحابه: «أنتم أكثر صلاة وصياماً من أصحابِ محمد صلى الله عليه وسلم، وهم كانوا خيراً منكم، قالوا: ولم؟

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٤٢، ٤٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه -كتاب الجهاد- باب من حبسه العذر عن الغزو ٦/ ٤٦ برقم ٢٨٣٩ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال: كانوا أزهدَ منكم في الدنيا وأرغبَ في الآخرة»[١]، وقال بكر بن عبدالله المزني: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره»[٢]، قال بعضُ أهل العلم: «الذي وقر في صدره حبُّ الله والنصيحةُ لخلقه»، وقال الفضيل بن عياض: «لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصحِ للأمة»[٣].

فعلى المسلم المبادرةُ إلى الطاعة والتزودُ من نوافل القربات والمسارعةُ في ميادين الصالحات وسؤالُ الله القبولَ بعد هذا كلِه، كما هي دعوة الخليلِ إبراهيمَ وابنِهِ إسماعيلَ عليهما السلام بعد أن عَمِلاَ أفضلَ الأعمال وأشرفَها، حيث رفعا الكعبة وبناها، قالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤].

(١) ينظر: المستدرك للحكم ٤/ ٣٥٠، شعب الإيمان ٧/ ٣٧٤، الزهد لابن المبارك ١/ ١٧٣.

(٢) منهاج السنة النبوية ٦/ ٢٢٣، ٨/ ٤٩٣، مفتاح دار السعادة ١/ ٨٢، فيض القدير ٤/ ١٤٤، جامع العلوم والحكم ١/ ٣٠، وفي بعضها عن أبي بكر بن عياش.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ١٠٣، شعب الإيمان ٧/ ٤٣٩.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٧.

المبحث الثاني

قدسية البيت الحرام ومكانته

جعل الله بيتَه الحرامَ ملتقى جموعِ المؤمنين و قبلةَ أهلِ الإسلام أجمعين، تتوجه إليه القلوب، وتفد إليه الوفودُ من كل فج عميق في كل وقت وحين، وما برح هذا البيت المعظم بحفظ الله ورعايته، يتطلع إليه المسلمون ويتنافس في بلوغ رحابه المتنافسون، يعيشون في أمنه وأمانه، وتوافر خيراته وأرزاقِه، ينعمون في ظلاله ويتفيؤن ما ينالهم من بركاته، قال تعالى ممتناً على عباده بذلك ومذكراً بهذه النعم المترادفة والآلاء الجمة ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾[٣].

لقد جمع الله لهذا البيت وأهلِه وقاصديه مزيتين بهما تحصل السعادةُ بتمامها، والطمأنينةُ بكمالها: سعةَ الرزق والأمانَ من الخوف، قال عز وجل: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤ ﴾[٤].

فمن خصائص هذا الحرم أنه حقيقٌ بالتعظيم والإجلال والاحترام،

---

(١) سورة القصص، الآية ٥٧ .

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٧ .

(٣) سورة آل عمران، الآية ٩٧ .

(٤) سورة قريش، الآيتان ٣،٤ .

وقد اتفقت قبائل العرب طراً على احترام هذا البيت وتعظيمِه، حتى إن الرجل يرى قاتلَ أبيه أو أخيه فلا يمسه بسوء، لأنه في أمان مادام أنه في الحرم، مضى على هذا عملُ الجاهلية، مع ما بين أهلها من اختلافِ المنازع وتباينِ الأهواء والمشارب، وتعددِ الأوثان والمعبودات، وكثرةِ الضغائن والأحقاد.

وقد أقر الإسلام هذه الميزة لبيت الله الحرام، وأما ما كان من المسلمين يوم فتح مكة فكان لضرورة تطهيره من الشرك ولأجل أن يعبد اللهُ وحده، ومع ذلك فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لم تحل لأحد كان قبلي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وإنها لن تحل لأحد بعدي**»[1] الحديث. على أن فتح مكة لم يؤثر على أمر الحرم وقدسيته شيئاً، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديه أن ينادي «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن**»[2].

وقد اتفق الفقهاء على أن من جنى في الحرم فهو مأخوذ بجنايته سواء كانت في النفس أم فيما دونها، واختلفوا فيمن جنى في غير الحرم ثم لاذ به ولجأ إليه، فقال أبوحنيفة وأصحابه: إذا قتل في غير الحرم ثم دخل الحرم لم يُقتص منه مادام فيه، لكن لا يجالس ولا يعامل ولا يؤاكل إلى أن يخرج منه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في مواضع منها: -كتاب جزاء الصيد- باب لا يعضد شجر الحرم ٤/ ٤١ برقم ١٨٣٢، ومسلم في صحيحه -كتاب الحج- باب تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام ٩/ ١٢٣-١٢٦.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه -كتاب الجهاد- باب فتح مكة ١٢/ ١٣٣.

فيقتصَ منه، وإن كانت جنايته فيما دون النفس في غير الحرم ثم دخل الحرم، اقتص منه، وقال مالك والشافعي: يقتص منه في الحرم لذلك كلِه، وقد روي عن ابن عباس وابنِ عمر وعبيدالله بن عمير وسعيدِ بن جبير وطاووسٍ والشعبي فيمن قتل ثم لجأ إلى الحرم أنه لايقتل، قال ابن عباس: ولكنه لا يُجالس ولا يُؤوى حتى يخرج من الحرم فيقتل، وإن فعل ذلك في الحرم أقيم عليه الحد، وروى قتادة عن الحسن أنه قال: لا يمنع الحرمُ من أصاب فيه أو في غيره أن يقام عليه الحد، وكان يقول في قوله: ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ كان هذا في الجاهلية، لو أن رجلاً جر كلَّ جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يُتعرَضْ له حتى يخرج من الحرم، أما الإسلام فلم يزده إلا شدة، من أصاب الحد في غيره،ثم لجأ إليه أقيم عليه الحد[1] .

إن ساكنَ البلدِ الحرام وقاصدَه يعيش هاتين المزيتين، ويشهدهما واقعاً ملموساً، رغدٌ في العيش، واستتبابٌ في الأمن، وتوفرٌ في المطاعم والمشارب، يُجبى إليه ثمرات كل شيء، كلُ هذا يسهل عليه العيش في أجواء روحانية وأيامٍ مباركة بجوار بيت الله العتيق، يرجو رحمة الله ويؤملُ مغفرته، يتطلع إلى عمل مبرور وسعي مشكور، قد لاذ بربه، متذللاً منكسراً بين يديه، يسأله العفو والصفح عما سلف وكان من الذنوب والعصيان.

وقد استجاب الله دعاء خليلهِ ونبيهِ إبراهيم عليه السلام حين دعا ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا

(١) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ١٢٤، جامع البيان ٧/ ٣٠-٣٣ .

لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1]، فما من مسلم في صقع من أصقاع الأرض نوَّر الله قلبه بالإيمان وحبِ الله ورسولهِ صلى الله عليه وسلم إلا وقلبُه يأمل زيارةَ البيت الحرام ومسجدَ الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا تزالُ هذه الأمنية تتلجلجُ في صدره وتختلجُ في فؤاده، وتكون معه دائماً في كل حركاته وسكناته وخطراتِه[2].

إن المسجد الحرام هو أولُ بيت بني على الأرض لعبادة الله وحده، بناه إبراهيم الخليل وشاركه ابنُه إسماعيل عليهما السلام، ونبيُ الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ثمرة دعوة صدرت من هذين النبيين الكريمين البانيين لهذا البيت العتيق، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[3].

لقد أقيم هذا البيت العتيق على قاعدة التوحيد ليبقى خالداً عامراً بإذن الله تعالى، قال عز وجل: ﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾[4]. وكان

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

(٢) انظر كلاماً لابن القيم في هذا. زاد المعاد ١/ ٥١-٥٢

(٣) سورة البقرة، الآيات ١٢٧ - ١٢٩.

(٤) سورة الحج، الآية ٢٦.

-بفضل الله وإحسانه- القبلةَ الواحدة لهذه الأمة، بـه قيـامُها وإلـيه مثابتُها، قـال عـز وجل: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[٢].

ولما أقيم هذا البيت على قواعد التوحيد ومبادئِ الحنيفية، والخلوصِ من الشرك وأهله، أمر الله خليله بالأذان للناس لحج هذا البيت وتعظيم حرماتِ الله وشعائرِه، مع ما يكون لهم من منافعَ في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[٣] الآيات.

ومنذ ذلك النداء ووفودُ الرحمن تتوافدُ من كل فجٍ، على الأقدام وركباناً على ما سخر الله لهم، وما فتئت النفوس المؤمنة تتطلع إلى رؤية هذا البيتِ والطواف حوله والصلاةِ في جنباته، وفي ذلك من الأنس والراحةِ والنعيمِ ما تعجز العبارةُ عن وصفه. يقول الشاعر:

أخي إن زرت بيتي الله تبغي رضا أو تشتكي هماً وحزناً

ففي تلك الرياض نعيم أنس لنـاءٍ إن دعاه الشوق حنا

ولعل هذا من أسرارِ عظمة الحج وأثرِه في النفوس، وقد أبان ذلك الماورديُ بقوله «ثم فرض الحج، فكان آخرَ فروضه، لأنه يجمع عملاً على بدنٍ وحقاً في مال، فجعل فرضَه بعد استقرار فروضِ الأبدان وفروض

---

(١) سورة المائدة، الآية ٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٢٥.

(٣) سورة الحج، الآية ٢٧.

الأموال، ليكون استئناسُهم بكل واحد من النوعين ذريعةً إلى تسهيل ما جَمَع بين النوعين، فكان في إيجابه تذكيرٌ ليوم الحشر بمفارقة المال والأهل، وخضوعُ العزيزِ والذليل في الوقوف بين يديه، واجتماعُ المطيع والعاصي في الرهبة منه والرغبةِ إليه، وإقلاعُ أهل المعاصي عما اجترحوه، وندمُ المذنبين على ما أسلفوه، فقلَّ من حج إلا وأحدث له الحجُ توبةً من ذنب، وإقلاعاً من معصية»[١].

إن أسرار الحج وحكمَه لا يحس بها ولا يعرفها حقَ المعرفة إلا من أدى حجه على الوجه الأكمل، فالحجُ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، قال أهلُ العلم: الحج المبرور هو الذي قام به صاحبُه متحرياً سنةَ النبي صلى الله عليه وسلم مع الإخلاص لله عز وجل، وعن جابر رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الحج المبرور؟ قال: « **إطعام الطعام وطيب الكلام** » رواه أحمد والطبراني والحاكم[٢]، وسئل سعيد بن جبير: أي الحج أفضل؟ قال: «من أطعم الطعام وكف اللسان »[٣]، وقال الحافظ ابن حجر نقلاً عن القرطبي: « هو الحج الذي وفيت أحكامه ووقع موقعاً لما طلب من المكلف على الوجه الأكمل »[٤]. فمعاني الحج وأهدافُه السامية

---

(١) ينظر: أدب الدنيا والدين ص ٩٦ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٨٣ وصححه ووافقه الذهبي، ورواه أحمد في المسند ٣/ ٣٢٥، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٠٧ وقال ((رواه أحمد وفيه محمد بن ثابت وهو ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن)).

(٣) ينظر: لطائف المعارف ٤١١

(٤) ينظر: فتح الباري ٣/ ٣٨٢.

إنما تتحقق بحج مبرور، قد وُفق صاحبه لاتباع السنة واقتفاءِ الأثر، مع الحذر مما يخدش حجَه أو ينقص من أجره، من قول أو فعل مخالف، صغر أم كبر.